الفكر الجزائري الوسيط

(أحمـــــد الونشريســـي)

الدكتور شيخ امحمد

سيرتـــــه

- هو ابو العباس أحمد بن يحيى بن محمد بن عبدالواحد بن علي الونشريسي التِّلمساني الأصل والمنشأ ،الفاسي الدار والوفاة والمدفن ،عام 1431م "، ولِد - بجبال ونشريس التي تُعَد أكثر الكتل الجبلية ارتفاعًا في غرب الجزائر حوالي عام 834هـ - 1431م، ت 914هـ - 1508م، ونشأ بمدينة تلمسان؛ حيث درس على مجموعة من العلماء،وتولى قضاء تلمسان.
- وكونه كان يقول الحق،ولا يخاف في ابداء رأيه،جعله عرضت لغضب السلطان ، ففر هاربا إلى فاس ، وتم نهب داره وحجز ممتلكاته ، حيث أستقبل بحفاوة ،فقد سبقت شهرته هجرته ،فأكرمه العلماء وفرح به الطلبة ،حيث قدمه السلطان المريني للتدريس في مدارس فاس ومساجدها،وهي السنة التي وقعت وهران تحت وطأت الإستعمار الإسباني ،ودفن بفاس.
- تتلمذ - رحمه الله - على يدِ مجموعة من العلماء والشيوخ، منهم على سبيل المثال: أبو الفضلِ قاسم بن سعيد بن محمد العقباني، أبو عبدالله محمد بن العباس بن محمد بن عيسى العبادي التلمساني، أبو عبدالله محمد بن عيسى المغيلي، الشهير بالجَلاَّب، التلمساني، أبو سالم إبراهيم بن الشيخ أبي الفضل قاسم بن سعيد العقباني التلمساني.

مؤلفاتـــــه

- كتاب" المعيار المُعْرب عن فتاوى أهل أفريقية والأندلس والمغرب،وقد طبع بفاس في 12 مجلدا.
- الوَفَيَات، وهو كتاب ضمنه ترجمة كاملة لشيوخه، ويعتبر العمدةَ لدى مترجميه.
- إضاءة الحلل في الرد على من أفتى بتضمين الراعي المشترك.
- المنهج الفائق والمَنْهل الرائق والمعنى اللائق بآداب الموثق وأحكام الوثائق .
- الولايات في مناصب الحكومة الإسلامية والخطط الشرعية
- ايضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك
- أسنى المتاجر وبيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر
- غنية المعاصر والتالي في شرح فقه وثائق أبي عبد الله الفشتالي.
- عدة البروق في تلخيص ما في المذهب من الجموع والفروق ، طُبِع على الحجر بفاس في 296 صفحة .
- الفروق في مسائل الفقه
- مختصر أحكام البرزلي.
- تعليق على ابن الحاجب الفرعي في ثلاثة أسفار.

موقفه من الحملة الصليبية

- لقد كان الغزو الصليبي على الشمال الإفريقي و كان مصحوبا بغزو فكري متمثل في الحملات التنصيرية التي مارسها المسيحيون على مرأى ومسمع من السلطان وأعوانه و تنشر المصادر الأجنبية المصير المأساوي " مرتان دوسيوليت" على يد سكان فاس الذين عمدوا إلى إحراقه في مشهد عام بعد ما تجرأ وبدأ ينشر المسيحية بين سكان المدينة المسلمين.
- لقد خلفت هذه الحملة أثارا سلبية في المجتمعات الإسلامية و هذا خلق فرق كسبوا ثقة الناس و حصلوا على أموال كثيرة، مما نتج عنه خرج البعض عن دِينه هروبًا مِن الوَضْع المُزْرِي، وشكَّل هؤلاء طائفتين:

الطائفة الأولى:

- تشمَل العرَّافين والسَّحَرة والمشعوذين، وهؤلاء يوهِمون الناس بأنهم يعلَمون الغيب، وقد كسَبوا ثقة الناس الجهَّال وأمثالهم، وحصلوا بذلك على أموالٍ كثيرة.

الطائفة الثانية :

وتتمثل في الصوفية والساذجين من الجمهور، وأصحاب أسرار الحروف فهم يصومون صومًا غريبًا، ولا يأكلون اللَّحم، يحمِلون التمائم، ويزعُمونَ أنهم تتجلَّى لهم الأرواحُ لتمدَّهم بمعرفةٍ شمولية ؛ فقد وجد بفاس بعض الأشخاص الذين يحمِلون اسم الصوفيةِ، ويمارسون أعمالاً غيرَ شرعية؛ كإباحة التغنِّي بقصائدَ غرامية فاحشة، وتشبُّثهم بالنظريات الفلسفية المستوردة؛ كوحْدة الوجود، والاتحاد والحلول.

الطائفة الثالثة :

هم الخُرَافيُّون من الجمهور الساذجين، فتختلف وجهاتُ نظرِهم باختلاف معتقداتهم؛ فهم يعتقدون اعتقادًا جازمًا أن بإمكان الإنسان أن يكتسبَ طبيعة الملائكةِ بالأعمال الصالحة والصيام.

كتاب المعيار المعرب

اجتهد الونشريسي في تأليف "المعيار" أكثر من أربعين سنة، ساعيا إلى تحقيق عِدَّةِ غايات؛ منها ما صَرَّحَ بِذِكره، ومنها ما نَسْتَشِفُّهُ من المنهج الذي سلكه في تأليف "المعيار"، ويذكُر المؤلِّف في بداية الكتاب، أنه جمع في كتابه أجوبة المتأخرين المعاصرين من علماء إفريقية والأندلس، ومن متقدِّميهم ما يعسُرُ الوقوف على أكثره في أماكنِه، واستخراجه من مكامنه؛ لتبدده وتفريقه... ورتَّبتُه على الأبواب الفقهية؛ ليسهُل الأمر فيه على الناظر، وصرحت بأسماء المفتين إلا في اليسير النادر]، ويُمكن أن نُقَسِّمَ تلك الغايات إلى ثلاثة أقسام هي:

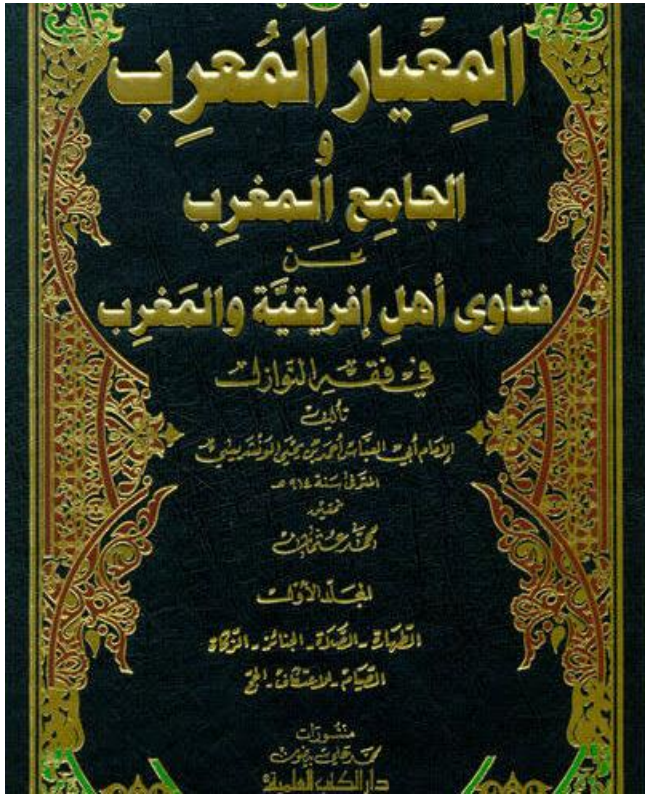

غاية تعبدية

بدأ الونشريسي مقدمة "المعيار" بتذكيره أنَّ الله، سُبحانه؛ "جعل العلم النافع من أعظم الأسباب الموصلة لمقاصد السعادة الأخروية"، ثم صَرَّحَ بقصده التَّعبدي من بَذْلِ الجُهد في مؤلفه ،وعموماً؛ فَإِنَّ العالم الرَّباني هو الذي يُرسِّخُ فيه عِلْمُه خشية الله تعالى، فَيَتَّخِذَ من اجتهاده في تحصيله أعظم القُربات التي تَنفعه يوم القيامة.

الغاية التَّعْلِيمية :

يَظْهَرُ هذا القصد من خلال منهج تأليف "المعيار" بشكل عام؛ الذي عَمَدَ فيه الونشريسي إلى إدماج الإجابات المتشابهة والإقران بينها، لما يحمله ذلك الوَصْلُ من الأهمية التي تُتَمِّم الفائدة التعليمية؛ لذا نجد الونشريسي يُقدِّمُ المسائل بعبارة (مسألة في معنى ما تقدم، أو من هذا المعنى،...)؛ تأكيداً على أهمية الالتفات لهذا الربط. إضافة لتَذْيِيلِ المسائل بتعليقات تَتَضَمَّنُ فوائد مُختلفة تُظْهِرُ طُرُقِ الاستنباط، وتُعَمِّقُ من فِقْهِ المَسائل.

الغاية العِلمية:

- حمل مُؤَلَّفَهُ رغبته في "توحيد الاجتهاد الفقهي من خلال الجمع والتأليف؛ لكي تكون في مُتَنَاوَلِ القضاة والمفتين، وإطِّلاعهم على اجتهادات فقهاء المذهب، و يرى أن له فوائد أهمها تَوْفِيرِ المجال لدراسة التراث الإفتائي في الغرب الإسلامي وتَقْيِيمِهِ وتنقيحه ، وهو المُلاحظ من صنيع الونشريسي في"المعيار"، بالرَّغم من الملاحظات التي سجلها عليه بعض العلماء والباحثين من أنه ضم بعض الفتاوى الضعيفة، وعُذره في ذلك "ضخامة الكتاب وتعدد المراجع وانصرافه إلى المقارنة والتعليق".

الخاتمة

- لقد لمسنا في مؤلفات الونشريسي مجموعة من القواعد المنهجية لعلم الفتوى،المَصُوغَةُ بطريقة تطبيقية تُنزَّلُ فيها الأصول على الفروع، وتُمَحَّصُ فيها نُصُوصُ أمهات أصول الفتاوي في مدى قُدرتها على تَأْطِيرِ واقع المكلفين المُتَجَدِّدِ؛ الأمر الذي يزيدها وُضُوحًا، فـ"لا تَبْقَى سابحة في المطلق كما هو الشأن في كتب الفقه عامة، وإنَّمَا تَتَحَدَّدُ مَسَائِلُهَا في المكان والزمان والموضوع بحسب ما تأتي به الأسئلة التي تَنْبَنِي عليها"، وللتَّنْبِيهِ على تلك الإفادات يستعمل الونشريسي مصطلحات تعليمية تُحَفِّزُ هِمَّةَ الطَّالِبِ؛ من قبيل "تأمل، انظر، تدبر، تذكر، افهم" ونختم ما يتعلق بمكانة كتاب المعيار، أن المؤلِّفَ استغرق في تأليفِه حسب ما جاء في مقدمة المعيار حوالي ربع قرن، من نحو عام 890هـ إلى وفاة المؤلف عام 914هـ .